التراكيب القرآنية ذوات الدلالة الإنكارية

م. م. شامل عبيد درع

م. م. أحمد جاسم عبد حسو

كليّة التربية / القائم - جامعة الأنبار

Quraniyah Compositions Insignificance

Shamil Obeed Draa Assistant

Ahmed Jassim Abd Assistant

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز التنوع في دلالة الكلمة، وهذا التنوع في الدلالة لا يتحدّد إلا من خلال السياق الذي ترد فيه، وقد بحثنا في الآيات القرآنيّة التي تتلوّن بأشكال الدلالة الإنكاريّة، فوجدناها كثيرة العدد، متعدّدة المعاني. فوزعناها على ثلاثة أقسام، اشتمل القسم الأول منها على الآيات التي تعطي دلالة التوبيخ، والتي تكون بمعنى ما كان ينبغي أي يكون.واشتمل القسم الثاني على الآيات التي تعطي دلالة التكذيب، والتي تكون بمعنى لم يكون بمعنى ما كان قائما على إبطال دعوى لم يكن لها أساس. واشتمل القسم الثالث على الآيات التي تعطي دلالة التقرير، من جهة كون التقرير يأتي في بعض الأحيان لتقرير أمر ما، والتحقيق فيه بغية إثباته، فالمعروف أنّ نفي النفي إثبات.وبعد ذلك كله يتبين أنّ هذا النوع من الدلالة لا يبدو لمن يقرأ القرآن بشكل مباشر، وإنّما يتطلب تأمل وتدبر عميقين على وفق ما تستدعيه قوانين اللغة السياقيّة وتقنياتها. فما بيّناه هنا فبفضل من الله وحده، والله الموفق إلى سواء السبيل.

Abstract:

This research aims to highlight the diversity of the meaning of the word, and this diversity in significance is determined only by the context in which it is presented, and we have examined the Quranic verses that appear in the forms of significance of the Incarnation, and we found many multiple, multiple meanings. We divided it into three sections, the first part of which included the verses that give the sign of rebuke, which in a sense should have been.The second section contains the verses that give the meaning of the denial, which in a sense was not in a sense was based on the invalidation of a case that had no basis. The third section contains the verses that give the significance of the report, on the one hand that the report sometimes comes to determine something, and investigate it in order to prove it, it is known that exile denied proof.After all, it turns out that this type of significance does not appear to those who read the Koran directly, but requires deep reflection and management as required by the laws of contextual language and techniques. So what we have here is thanks to God alone, and God is the conciliator to both ways.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين . اما بعد :فتعد التراكيب القرآنية ذات الدلالة الإنكارية من ابرز التراكيب التي شغلت علماء اللغة فوجدنا في دراسة تلك التراكيب مغماراً واسعاً يلهث بهذه الدلالة التي تنوعت اشكالها بحسب السياق الذي تنتمي اليه ، فمنها ما يأخذ طابع الإنكار التوبيخي ، ومنها ما يأخذ طابع الإنكار التكذيبي ، ومنها ما يأخذ طابع الإنكار التقريري ، وكنا قد قرأنا في بعض كتب التفاسير نماذج من هذه التراكيب فقمنا بجمعها ودراستها دراسة دلالية في بحث يخدم الدارس اولاً ثم القارىء ثانياً ، ولما كانت هذه التراكيب كثيرة في القرأن الكريم لا يسعها هذا البحث المصغر ، إذ إن للبحوث شروط للنشر وخاصة فيما يتعلق بعدد الصفحات ، فاخترنا أخذ مبدأ المغايرة في إبراز تلك الدلالة ، وكان منهجنا مبنياً على ذكر الآية ثم ذكر آراء المفسرين والنحاة وعلماء البلاغة في بيان دلالة الإنكار سواء اكان توبيخا ام تكذيبا ام تقريرا .فهذا عملنا فإن افلحنا فيه فالله الحمد وإن لم نفلح وجانبنا الصواب ، فهو من عمل البشر ، والإنسان ليس معصوم إلا من رحم ربنا ، هو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين

التراكيب القرآنية ذاتِ الدلالة الإنكارية

أن دلالة الكلمة مرتبطة بسياقيها الذي يوحي بمعناها إذ تتحدد تلويناتها الدلالة عبر مفهومية متميزة ، ومعنى الكلمة لا يتحدد إلا من خلال استعمالها في اللغة وذلك من خلال الدور الذي تؤدية ، يقول فيرث : ((بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تنسيق الوحدة اللغوية ، أي وضعها في سياقات مختلفة)) [1] ويذكر الدكتور احمد مختار عمر : ((أن أصحاب مدرسة لندن والتي يتزعمها فيرث (firth) يركزون على المنهج السياقي اللغوي الذي ترد فيه الكلمة ومدى أهمية البحث عن ارتباطها بالكلمات الأخرى ، وذلك لان معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى ، وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاوره لها ، فدراسة معاني الكلمة تستدعي تحليلا للسياقات والموافقة التي تحتويها)) [2].

وقد أخذت أبحث في هذا المجال عن أبلغ التلوينات الدلالية في الآيات القرآنية وما يمكن أن تحتويه الألفاظ داخل ذلك السياق من معان مخالفة لظاهرها ، فالآيات القرآنية زاخرة بتلك التلوينات الدلالية ، وخاصة الآيات ذات الطابع الإنكاري فمنها ما يكون ذات دلالة توبيخية ، ومنها ذات دلالة تكذيبه ومنها ذات دلالة تقريرية ، فتلك التغيرات يمكن أن تستكشف من خلال مجاورة الألفاظ بعضها لبعض داخل السياق بحيث يصبح لتلك الألفاظ معنا آخر غير المعنى الحقيقي ، فوجدنا أن التراكيب القرآنية التي تحمل في مضمونها دلالة إنكارية تقسم من حيث الدلالة إلى **ثلاثة أقسام** :

القسم الأول : ذوات الدِلالة التوبيخية :

وتأتي هذه الدلالة بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ، نحو : ((أعصيت ربك ؟)) أو بمعنى لا ينبغي أن يكون كقولك للرجل يُضيِّع الحق : أتنسى قديم إحسانِ فلان ؟ وكقولك للرجل يركب الخطر : أتخرج في هذا الوقت ؟ أتذهب في غير الطريق ؟ والغرض بذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه ، فيخجل أو يرتدع عن فعل ما همَّ به [٣] . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ { سورة البقرة: ٢١١ }. أمر الرسول ﷺ كما هو الأصل في الخطاب أو لكل واحد ممن يصح منه السؤال ، والمراد بهذا السؤال تفزيعهم وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحق بعد وضوح الآيات لا أن يجيبوا فيعلم من جوابهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد يقول لمن حضر سلهُ كم أنعمت عليه [٤] . فقوله : ﴿ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ ﴾ لفظ عام لجميع العامة وإن المشار إليه بني إسرائيل لكونهم بدلوا ما في كتبهم وجحدوا أمر محمد ﷺ ، فاللفظ منصب على كل مُبدل نعمة الله تعالى [٥] . أما العقاب فقد جُعل مترتباً على التبديل الواقع بعد هذا التمكن للدلالة على أنه تبديل عن بصيرةٍ لا عن جهلٍ أو غلطٍ ، وحذف ما بدل به النعمة ليشمل جميع أحوال التبديل من كتم بعضها والإعراض عن بعضٍ وسوء التأويل . والعقاب ناشئ عن تبديل تلك النعم أو في أوصافها أو في ذواتها ، ولا يكون تبديلها إلا لقصد مخالفتها ، وإلا لكان غير تبديل بل تأييداً وتأويلا [٦]. بخلاف قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ { سورة النساء: ٢ }. فنجد الزيادة واضحة في قوله ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ﴾ لأن الحكم عام يشمل جميع المسلمين وعلى مر العصور ، فقد سيقت هذه الآية لتوبيخ الذين ضموا أموال اليتامى مع أموالهم ، ((واستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم الذي أُبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه ، حيث جاء الحرف (إلى) بمعنى (مع) وكرر إعادة النهي عن أكلِها مع أموالهم لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من حلال وهم مع ذلك يطمعون في أموال اليتامى ، كان القبيح أبلغ والذم أحق [٧] .

فتنطوي هذه الآية على قيمة بلاغية تكمن في صيغتها المجازية على اعتبار ما سيكون ، لأن من المجاز المرسل تسمية الشيء باسم ما كان عليه ، فجاءت الآية بمعنى الذين كانوا يتامى ، إذ لا يُتمَ بعد البلوغ ، كما إن التعبير اليتامى له هدفهُ ، فقد أراد سبحانه وتعالى أن يشعر الأوصياء بأن هؤلاء وإن بلغوا مبلغ الرجال : ﴿ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ ﴾ { سورة النساء: ٦ } . فلا تظنوا أن ذلك يهوّن شأن المحافظة على أموال هؤلاء ، فكما حافظتم على أموالهم في صغرهم ، فلا بد أن تؤدوها لهم كاملة غير منقوصة [٨] .وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ { سورة المائدة: ٥٧ }. وقوله :﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ { سورة المائدة: ٥٨ } . فنجد أن السياق في الآيتين فيه تبكيت وتوبيخ لهذا الصنف من الخلق الذين ساروا خلف اليهود والنصارى ، أي بمعنى : لا تتخذوا أعداء الإسلام وأهلهِ من الكتابيين والمشركين أولياء ، وهم الذين اتخذوا أفضل ما يعمله العاملون ، وهي شرائع الإسلام المطهرة ، المحكمة ، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي يتخذونها : ﴿ هُزُوٗا ﴾ يستهزئون بها، و﴿ وَلَعِبٗا ﴾، يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد [٩] ، فالذي اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه ، لذلك ذكر الله جانباً من استهزائهم تمثل بسخريتهم من المؤمنين في أثناء الأذان والدعوة إلى الصلاة ، ففي السياق الأول بدأ سبحانه وتعالى القول بالنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ وعقبه بالمؤمنين إكراماً لهم وإعلاء من شأنهم ومن ثمَّ نهيهم عن موالاة من يتخذ الدين الإسلامي هزواً ولعباً ، لأن هؤلاء القوم لا يدركون معنى الصلاة ، وقيمتها في تطهير النفوس من الدنس والفحش، فأكد الباري عز وجل ذلك بقوله : ﴿ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾، فقد أكد بـــ (أنَّ) ثم نفى العقل عنهم ((لأن لعبهم وهزوهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم)) [١٠] . فمن لا يملك عقلاً لا يصاحب أو

يتخذ ولياً فهم كالأنعام أو أضل سبيلاً ، وقال في السياق الأول : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. فإنَّ (إنْ) هناك جاءت بمعنى (إذا) على المذهب الكوفي ، فيكون المعنى : (اتقوا الله إذا كنتم مؤمنين) فقضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة [١١] . يقول أبو حيان ((حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا : ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء ، فمن أين لك الصياح كصياح العير ؟ فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية)) [١٢] .ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾ { سورة النساء: ١٤٤} . فإنها توبيخ لمن اتخذ اليهود والنصارى أولياء لهم من دون المؤمنين ، فنجدُ أنّ الاستفهام موجه في قوله : ﴿ أَتُرِيدُونَ ﴾ موجهاً إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة بل يحتمل وقوعها في المستقبل ، والمراد لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة ، وإنما المراد من ذلك أيضاً تنبيه المخاطب إلى خطاب ما هو مقبلٌ عليه حتى يرتدع عنه . فالمعنى لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال [١٣]وتأكيد سياق آية النساء قوله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ { سورة المائدة :٥١٠} .، ففي سياق آية النساء،نجد الخطاب بالنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ثُمَّ أعقبهُ بـــ (المؤمنين) إكراماً لهم، ثم قدم الظرف : ﴿ مِّن دُونِ ﴾ على المؤمنين في السياق المذكور ، وذلك إشارة على علو مرتبة المؤمنين ، فلا يجوز لمن هو أسمى أن يصاحب ما هو دونهُ في الرتبة ، لذلك ورد هذا التأكيد في مواطن عدة من القرآن الكريم من ذلك قولهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ ﴾ { سورة آل عمران: ١١٨} .فسياق هذه الآية وسياق آية المائدة قد تضمن المنع من التأييد والانتصار بالمشركين ونحو ذلك ، وروى جابر : أن النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى أُحد جاء قوم من اليهود فقالوا : نسير معك ؟ فقالﷺ : ((إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين)) وهذا هو الصحيح [١٤] . وقولهُ تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ { سورة الكهف:٥٠ } ، ففي سياق هذه الآية إنكار وتوبيخ لمن اتخذ الشيطان وأولاده أعواناً وأنصاراً من دون الله ، فالله سبحانه وقف الكفرة على جهة التوبيخ بقولهِ : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ ﴾ يا بني آدم وذريتهُ أولياء وهم لكم عدو أي أعداء [١٥] فنجد أن الله سبحانهُ وتعالى في سياق هذهِ الآية اكتفى بذكر(الياء) ولم يقل (من دون الله) ترفقاً في أن يقترن لفظ الجلالة مع الشياطين ، فالله عز وجل ((لا يريد الكفر ولا يخلقهُ في العبد ، إذ لو لوا أرادهُ وخلقهُ فيه ثم عاقبهُ عليه لكان ضرر إبليس اقل من ضرر الله عليهم ، فكيف يوبخهم بقوله : ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ ! ؟ تعالى الله عنهُ علواً كبيراً ، بل على هذا المذهب ، لا ضرر البتة من إبليس بل الضرر كلهُ من الله . **والجواب:** المعارضة بالداعي والعلم وهذه دلالة الآية كما يقول الجبائي [١٦] . فالله سبحانه وتعالى أمر الملائكة وإبليس بالسجود لآدم فأبى إبليس أن يسجد أنفة وكبرياء ، لذلك ابتدأ السياق بـــ (الهمزة) لتقرير حالة ينبغي أن لا تكون وهي انصياع الإنسان للشيطان واتخاذه نصيراً .وقوله تعالى :﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾{ سورة النحل : ٧٣ } ، قال بعض أجلة المحققين :أن قوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ عطف على قوله﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ داخل تحت الإنكار التوبيخي [١٧] أي : أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه ، أوثانا لا تضر ولا تنفع فهي عاجزة عن رد ظلمٍ ، أو تفريج همٍ أو تحصيل رزق أو إنزال مطر أو إحياء للأرض لذا ختم الآية بـــ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي : أن الأوثان عاجزة عن كل ذلك ثم أعقبها بقوله :﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾{ سورة النحل : ٧٤ } . فهنا التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي ، والفاء جاءت لترتيب النهي على ما عدّد النعم الفائضة عليهم منه تعالى وكون آلهتهم بمعزل من أن يملكوا لهم رزقاً فضلاً عما فضل[١٨].لذا نجد أن في الآية تقديم للظرف ﴿ مِن دُونِ ﴾ على لفظ الجلالة للدلالة على أن الأوثان لا يمكن أن تقاس في المرتبة مع الله ، لذلك لم يقل ((ويعبدون مع ما لا يملك)) وكذلك نجد أن الآية صدرت بجملة فعلية بصيغة الجمع : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ ، لأن الخطاب في سورة النحل موجه إلى المشركين ، ولأن الشرك بالله قائم متجدد ، مع أنه سبحانه وتعالى خلق الخلائق كي يعبدوهُ بقوله :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ { سورة الذاريات: ٥٦} . فترى أن الآية قد بدأت بالنفي وتوسطت بأداة استثناء (إلا) بغية قصر خلق الإنس والجن لأجل العبادة ، لذلك جاءت اللام للسببية والتعليل كما تقول : زرتُكَ لشرفِكَ [١٩] ، فالله سبحنهُ خلقهم لغاية أساسية وهي العبادة ، والغاية أولى من الوسيلة ، يقول الآلوسي : ((أن العبادة واجبة حتماً لامناص للعبادة عن الإتيان بها حتى جعلت كالعلة لخلق الإنس والجن، فكانت أحق بالتقديم))[٢٠].ونظائر آية النحل في القرآن الكريم

كثير ،من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ { سورة يونس: ٦٦ }. وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾ { سورة الرعد: ١٤} . أما لو تأملنا قوله تعالى : ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾{ سورة البقرة: ٢٨ }. فالسياق يوحي بالتفزيع والتوبيخ، يقول ابن جرير: ((إن قوله : ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا ﴾ توبيخ مُسْتَعْتَبٍ عباده وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصي إلى الطاعة ومن الضلالة إلى الإنابة ، ولا إنابة في القبور بعد الممات ولا توبة فيها بعد الوفاة)) [٢١]، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية خاطب خلقه وأنكر جحودهم ونسيانهم الصانع بعد أن كانوا من العدم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، فأخرجهم إلى الدنيا ((البعثة الأولى)) ثم أماتهم بعد انقضاء الأجل ثم أحياهم ((البعثة الثانية)) ليلاقوا ربهم ، ونجد أيضاً استخدام ((ثمَّ)) لتدل على التراخي والتمهل ، لأن خلق الإنسان يمر بمراحل عدة حتى يصل مرحلة النضج والاكتمال ، لتليها مرحلة الموت ومن ثم البعث والنشور،أما مسألة كون الإنسان عدماً فأخرج إلى الوجود اعتمد التعبير القرآني ((الفاء))[٢٣].﴿ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ﴾ لأن هناك ترتيباً وتعقيباً ، قال الفراء : ((إن السياق في قوله ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ ..... ﴾ على وجه التعجب والتوبيخ ، لا على الاستفهام المحض ، أي : ويحكم كيف تكفرون ، وهو كقوله : ﴿ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾{ سورة التكوير : ٢٦})) [٢٤]. ويقول الزمخشري : ((ومعنى الاستفهام في ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ ﴾ ((الإنكار والتعجب)) حيث كان إنكار للحال التي يقع عليها كفرهم ؟ قلت : حال الشيء تابع لذاته ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكاراً لذات الكفر وثباتها عن طريق الكناية وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ ﴾{سورة آل عمران: ١٠١} . فالاستفهام هنا أيضاً فيه معنى الإنكار والتعجب ، والمعنى : من أين يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله وهي القرآن المعجز تتلى عليكم على لسان رسوله وينبهكم ويعظكم))[٢٥]. ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴾ { سورة الكهف: ٣٧ }. فهنا الاستفهام إنكار وتوبيخ حيث اشترك مع الله غيره . ثمَّ نبهه على أصل نشأته وإيجاده بعد العدم ، وأن ذلك دليل على جواز البعث من القبور [٢٦]. فقد ذكر (التراب) في سياق الآية للدلالة على بساطة الشيء الذي خُلق منه ، وهي دعوة إلى عدم التكبر على الخالق ، وقد أعقب ذلك بـــ (ثمَّ) لأن هناك مراحل يمر بها الإنسان قبل أن يصل مرحلة النضج والاكتمال المتمثلة بقوله : ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴾ ، ففي هذا السياق أصبح هناك إنكار وتوبيخ وتعجب ، إنكار وتوبيخ نِعم الله ، وتعجب من جحود الإنسان وكفره .وقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾{سورة الأعراف:٤٥}. حيث نلمح في هذا السياق القرآني توبيخ الله جل جلاله لهذا الصنف من الناس الذين يمنعون الناس من إتباع دين الله ويسوّلون لهم بأن سبل الإسلام معوجة كي لا يتبعها أحد ، ولعل التوبيخ لهؤلاء القوم نابع من نكرانهم وعد إيمانهم باليوم الآخر والبعث،إذ قال عنهم : ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ فقد أكد ذلك بالضمير (هم) ، بعد أن ذكر صفاتهم من الصد عن السبيل القويم ، وابتغاء المعوج منه كي يوقن المؤمنون من أن هؤلاء لا صلاح لهم ولا غاية لهم إلا الفساد ، لأنهم غير مؤمنين بالآخرة ، فقد عُدل في سياق هذه الآية من الجملة الفعلية ﴿ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا ﴾ إلى الجملة الاسمية ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ للدلالة على الدوام والثبات إشارة إلى رسوخ الكفر فيهم [٢٧]. ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ { سورة هود: ١٩} . فترى قد زاد الضمير (هم) وكرره مرتين وذلك لأنهم كذبوا على الله بقوله : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ { سورة الأنعام: ٢١}. فالتوكيد هنا للدلالة على أن خزي هؤلاء سيكون في الآخرة، لذا اقترنت الآخرة بالضميرين زيادة وتوكيداً[٢٨]. وآية ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ ﴾ { سورة هود: ١٨}. فترى كلمة (الأشهاد) واسم الإشارة (هؤلاء) وكأننا أمام مشهد فيه صوت مسموع وإشارة تجاه المشركين الكاذبين بسبب ترويجهم أباطيل كي يلفتوا نظر الناس عن الصراط المستقيم وتحويل أنظارهم إلى ما هو مظلم ومعوج .وقوله تعالى : ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾{ سورة الأنعام: ١٤٠}. ففي هذه السياق إنكار وتوبيخ لفعل غير مشروع تمثل بقتل الأولاد من دون أن يعلموا نتائج فعلهم ، ((لذلك وصف عملهم ب (السفه) إشارة إلى أن السفيه يفعل من دون حكمة وتعقل ، إذ وصف عملهم بالخاسر المؤكد ، حيث

جاء الفعل (خسر) ، بصيغة الماضي المسبوق ب (قد) المعروف أن (قد) إذا دخلت على الماضي تفيد التوكيد والتحقيق))[٢٩].

ولم يقل (قد يخسر) لأن ذلك يفيد التقليل أو الاحتمالية ، علماً أن الباري عز وجل قد حدد أسباب القتل بعاملين ، **الأول : الفقر** : فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ { سورة الأنعام:١٥١}. فالخطاب هنا – موجه إلى الفقراء – والقرينة قوله ﴿ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ أي أنهم هؤلاء الآباء يقتلون أبنائهم بسبب فقرهم، لذلك قدم رزق الآباء ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ على رزق الأبناء ﴿وَإِيَّاهُمْ ﴾ كي يُحجموا عن فعل القتل ويتيقنوا أن الله رازقهم أجمعين ، **والثاني : خشية الفقر** بقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾{ سورة الإسراء: ٣١} ، فتجد عبارة ﴿خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ قد دلت على أنهم يمتلكون المال إلا أنهم يخشون نقصانه بسبب ما يترتب على إنجاب الطفل من مأكل وملبس ودواء ، فهم يقتلون أولادهم (خشية الفقر) لذلك قدم رزق الأولاد على رزق الآباء ، يقول أبو حيان : ((إن قوله : ﴿ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ فظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقفه ، وخشيته وإن كان واجداً للمال فبدأ أولاً بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ ، خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاّق الرزاق ثم عطف عليهم الأولاد ، وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون وإن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه فبدئ فيه بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ إخباراً بتكفله تعالى برزقهم فلستم أنتم رازقيهم وعطف الآباء وصارت الآيتان مفيدتان معنيين : **أحدهما** : إن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم .**الآخر** :أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسري لتوقع حصول الإملاق وخشيته وحمل الآيتين على ما يفيد معنيين أولى من التأكيد))[٣٠]. وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾{ سورة النور: ٣٣ }. فقد بدأ السياق بالنهي ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ ﴾ ثم أكد بـــ (إن) ليضع التعبير القرآني قيداً ﴿إِنْ أَرَدْنَ ﴾ ، لأنه لا يمكن للمرء أن يأمر أهل بيته أو من هو بمعيتهِ على الفاحشة ، يقول ابن عيسى في قوله تعالى : ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾{ النورمن الآية: ٣٣}. جاء بصيغة الشرط لتفحيش الإكراه على ذلك ، وقال : لأنها نزلت على سبب فوقع النهي على تلك الصفة [٣١] .ويذكر الرازي:((أن الإكراه إنما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضي تلف النفس فأما باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة فحال الإكراه على الزنا كحال الإكراه على كلمة الكفر ، والنص وإن كان مختصاً بالإماء إلا أن حال الحرائر كذلك)) [٣٢] . ثم إن قوله ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ تصوير لخسة ودناءة من يكره امرأة على الزنا وهي تمتنع طلباً للعفة ، وقد حصَّن الباري عز وجل المرأة المكرهة على الزنا بقوله :﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقوله تعالى :﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾{سورة يوسف:٨٩ } فقد عمد التفسير القرآني على توبيخهم لما فعلوه بأخيهم بغية تعظيم الواقعة ، لذلك صدر السؤال بـــ ﴿ قَالَ ﴾ ثم أعقبه بالاستفهام لأن المقام مقام تبليغ واستجواب وإنكار لفعلتهم بدليل أنه قال : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ كي يدل على سفاهة ما قاموا به ، لأنك إذا وهمت إنساناً بالجهل ، كان ذلك ثقيلاً عليه ، لأن الجاهل لا يعلم شيئاً من أمور حياته ، فهنا قصد بغية الزيادة في توبيخهم [٣٣] ، لذا لم يقل((إذ أنتم مسرفون)) كذلك فإن تصدر السياق بالفعل ﴿ قَالَ ﴾ يستدعي الاهتمام بمقول القول الذي قصد بثه وإعلانهُ أو الوصول إليه ، لأنه أراد أن يصل إلى حقيقة ما أقدموا عليه .وقوله ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾{سورة الصافات: ٩٥ }. فالله سبحانه وتعالى ((ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق تلك الأصنام ، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام لا جرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم ، فقال : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾{سورة الصافات:٩٥ – ٩٦}،ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم أنها حجة لكم)) [٣٤] .

وقد ذكر أبي بكر السيوطي أن الهمزة في قوله :﴿أَتَعْبُدُونَ ﴾ للتوبيخ ، أي : اللوم على ما وقع [٣٥]. فالقصد من الاستفهام ، الإنكار والتوبيخ [٣٦] . بغية لفت نظرهم إلى بشاعة ما يصنعون أو يفعلون ، ونظير ذلك قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾{ سورة الصافات: ١٢٥}. فالسؤال في سياق هذه الآية موجه لهذه الطائفة من الناس ، والتي ارتضت عقولهم أن يعبدوا صنماً صنعوه بأيديهم ، ألم يلتفتوا إلى من صنعهم هم ليعبدوا شيئاً تافهاً ويتركوا أحسن الخالقين ، فهذه الآية توبيخ وتبكيت للكفرة ، وإنكار عبادتهم لما سموه ﴿ بَعْلًا ﴾ إذ أكد الباري عز وجل ذلك بقوله : ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾{ سورة الصافات: ١٢٦} .ونظير ذلك قوله

تعالى:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ }{ سورة النحل: ١٧.}. فمن يمعن النظر في هذا السياق يجده جاء لمزيد التوبيخ فيه دون أن يقول : أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره إياه ، لكونه إلزاماً للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة ، تشبيهاً بالله تعالى ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، وأن يكون الإنكار موجهاً إلى توهم تشبيه الحي العالم القادر من الخلق به تعالى ، وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ، تعريضاً بهِ عن أبلغ الإنكار ما ليس بحي عالم قادر به تعالى ، ويكون قوله : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تنبيه وتوبيخ على مكان التعريض[٣٧] ، فقوله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ورد من دون زيادة ، لأن السؤال في هذا السياق موجه إلى المخاطبين لا يحتاج إلى عظيم جهد أو كثير تأمل ، إنما يسرع العالم والجاهل بالقول ﴿ أَفَلَا ﴾ لذلك قال ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ في حين أنا وجدنا آيات أخرى وردت الصيغة للفعل (تتذكرون) .لأن الفعل ينساق مع الحدث والزمن والجهد فكلما كان الجهد أقوى والزمن أطول والحدث أكثر اضطراباً وعنفاً ترد الصيغة بكاملها كما أن الآية قد صدرت بالاستفهام الإنكاري ، لأنه لا يمكن التسوية بين الخالق والمخلوق ، وبين من يخلق ومن لا يملك ضراً ولا نفعاً ، فلأنهم جهلوا حقيقة ما يعبدونه فقد ضم السياق : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بجامع التوبيخ، ومن يدقق النظر يجد أن الباري عز وجل قد حصر العبادة به لقوله:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾{ سورة الفاتحة: ١ – ٥ }. وقوله ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾{ سورة الأنعام: ٤١ } .وقوله ﴿ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ { سورة الأعراف: ٣٧ }.

القسم الثاني : ذات الدلالة التكذيبية :

يكون الإنكار التكذيبي بمعنى (لم يكن) ، أي هو قائم على إبطال دعوى لم يكن لها أساس[٣٩] ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ { سورة الإسراء: ٤٠ }. فجاء سياق هذه الآية على معنى الإنكار للتكذيب بمعنى : لم يكن ، أو لم يقع ذلك ومُدَّعيهِ كاذبٌ، والمعنى : لم يكن من الله تعالى اصطفاء، ولا اتخاذ [٣٩] . فالهمزة هنا للإنكار، لأنهم حاولوا أن ينسبوا لله ما يأنفون منه، قال تعالى:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ { سورة النحل: ٥٨}، أي: فكيف تنسبون ما هو أدنى وتصطفون لأنفسكم الأعلى ؟ لذلك أكد الباري عز وجل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾{ سورة الإسراء: ٤٠} ، وقد آثر لفظة ﴿ عَظِيمًا ﴾ لبيان بشاعة وشناعة ما ينسبوه إلى الله ويجعلون له ما يكرهون .ونظير ذلك قوله تعالى:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ }{سورة النحل: ٥٧ } ، فهنا إشارة إلى جهل المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة إناثاً ، ونسبوها إلى الله ، وجعلوا لهم البنين وقد تمثل ذلك بقوله : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ، فتجد قوله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ جملة اعتراضية جاءت في موقعها ، ((والغرض منها تنزيهه تعالى عن اتخاذ البنات))[٤٠] ، وفيها معنى من التعوذ والتنزيه لله عز وجل ، فكأنها بمنزلة قوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ {سورة يوسف: ٢٣} وبمنزلة : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾{ سورة البقرة: ٢٨٥ }.))[٤١]. فالكلام يمكن أن يستقيم إذا قيل : ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون ، وإنما جاءت لفظة سبحانه تنزيهاً له من اتخاذ الملائكة بناتٍ له ؛ ((إذ إنها واقعة موقع المصدر الذي هو التنزه ، والمعنى أنزهه تنزيهاً))[٤٢] وقد عني بهذا الأمر المهم بتكراره إذ تجد كذلك في قوله تعالى:﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ {سورة الصافات}. إذ تجد أنَّ ((سياق هذه الآية يشمل على أمرين: **أحدهما** : إثبات البنات لله ، وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق .**الثاني** : إثبات أن الملائكة إناث وهذا أيضاً باطل لأن طريق العلم أما الحس وإما الخبر وإما النظر ، فالحس: مفقود ههنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الملائكة ، وأما الخبر : فمفقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا عُلِمَ كونه صدقاً قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذَّابون أفَّاكون لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة ، وأما النظر : فمفقود أيضاً))[٤٣] فالخطاب في سياق الآية موجه للنبي محمد ﷺ فقال لهُ: (استفتهم) ولم يقل اسأل؛ لأن السؤال يتم بوساطة ، فأقول : ((أسأل عن البدل)) أو ((أسأل عن الفصل والوصل)) ، أما الاستفهام فيتم خلال الخوض في التفاصيل والبحث عن الحيثيات ، وتوجب إيضاح الأمر ، لذا وجّه للنبي أن يستفهم عن هذا الإلحاح في هذه الأقاويل والأراجيف التي بثها كفار مكة وتكذيب وإبطال دعواهم بدليل أنه عُقِبَ بقوله : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ } { سورة الصافات: ١٥٠ }. فهنا جاء السياق حجةً دامغةً على كذب دعواهم.أهم شاهدون على خلق الله لملائكته؟ فجاءت هذه الآية مُنكرة ومسفهة أقاويلهم

واستهزاءً بهم ، أي بمعنى: أجعلنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون على ذلك . وزيادة على كذبهم ادعوا لله ولد قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ { سورة الصافات: ١٥١ – ١٥٢}، قال ابو سعود : ((والآية إستئناف مسوق لإبطال اصل مذهبهم الفاسد ، ببيان ان مبناه ليس إلا الإفك الصريح والإفتراء القبيح ، من غير ان يكون لهم دليل مطلقا

. والذي يتأمل الآيات معرض التحليل ، يجد صيغ الالتفات مختلفة . ففي آية الإسراء﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ ﴾، الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ وَٱتَّخَذَ ﴾ ،وفي الصافَّات الالتفات من المخاطب ((استفتهم)) إلى الغيبة ﴿وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ ، وفي آية الطور الالتفات من الغيبة ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ ﴾ إلى الخطاب ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ ، ففي الآيتين (الإسراء والطور) الخطاب موجه لعامة المشركين بغية لفت نظرهم إلى حقيقة ما ادعوه على الله ، أما آية الصافات فإن الخطاب فيها موجه إلى الرسول الكريم (ﷺ) بغيه السؤال والاستفهام :﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾؛لأجل توضيح الأمر لهؤلاء المشركين والكف عن هذه الأقاويل ، لذلك خاطب رسوله لأن إلحاحهم وصل مرتبة لا يمكن الصمت إزاءها . ولعل من الدلالة التكذيبية ما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ ﴾{ سورة النور: ١٥}. وترى قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِكُم ﴾ وهو استخدام مجازي والقرينة حالية، إنه ذكر المحل (الفم) والمراد الحال (اللسان) ومثل ذلك قوله تعالى:﴿ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾{سورة آل عمران: ١٦٧}

. ليؤكد الباري عز وجل كذب دعواهم وإنكار ما قالوه وخاضوا فيه بدليل قوله : ﴿ مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ إذ رموا محصنة بفاحشة الزنا وهذا افتراء عظيم ، لذلك اسند القول إلى الأفواه لا إلى الألسنة ليقلل من شأن ما قالوه ، لأنهم يحسبونه هيناً سهلاً ولكنه عند الله يعد جرماً وإثماً عظيماً .ونظير ذلك قوله تعالى:﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۖ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾{سورة الأحزاب: ٤} . يقول الآلوسي : ((إنّ ذا القلبين هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب ، وحكى أنه قال : ((إنّ لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ﷺ فروي أنه انهزم يوم بدر فمر بأبي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيدهِ والأخرى في رجله فقال له أبو سفيان : ما فعل الناس ؟ فقال : هم ما بين مقتول وهارب فقال لهُ : ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك؟ فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلي فأكذب الله تعالى قولهُ وقولهم)) [٤٥].ثم ترى أن قوله : ﴿ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ ﴾ ولم يقل (بألسنتكم) لأن هذه الآية سيقت لتكذيب من جعل أمه ظهيرة لزوجته ، والابن المتبنى ابناً ، لذلك وردت هذه العبارة لإنكار الظُهار والتسوية ، وقد أكد ذلك بقوله ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ ﴾ إذ أن الغرض من هذه الآية التنبيه على بطلان مزاعم الجاهلية ، وأعطى قرائن تثبيت بطلان الظهار والتسوية ، لأنه لا يمكن يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المُظاهَرُ منها أُماً ، ولا الولد المتبني ابناً ، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدته ، والابن الحقيقي هو الذي وُلد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المُظاهر منهن أُمهات ؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناءً لهم ؟ مع أنهم ليسوا من أصلابهم ؟ لذلك أمر الله أن يرد نسبهم إلى أبنائهم ، فقال : ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾{ سورة الأحزاب: ٥}.

وقوله تعالى : ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ {سورة هود: ٢٤}. في هذا السياق إنكار وإبطال المساواة بين هذين الفريقين ، إذ شبّه المؤمنين والكافرين بفريقين ، فريق ضل الطريق فهو كالأعمى وتليت عليه آيات اله فلم يعمل بها فهو كالأصم ، وفريق اهتدى بنور الحق واستضاء بضيائه ، لذلك قال : ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ﴾ فجاء الاستفهام لإنكار وإبطال التسوية بين من يتخبط في ظلام دامس وبين من اهتدى إلى سبل السعادة والنجاة إذ أسهم أسلوب المقابلة في تثبيت الدلالة المعنوية لهذه الموازنة ، فضلاً عن أسلوب اللف فقد جاء كل طرف على حدة يقابله الطرف الآخر ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓـُٔۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ {سورة غافر: ٥٨}. يقول أبو حيان : ((قسم الذين آمنوا بطول صلة الموصول كرر لا توكيداً ، وقدم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لمجاورة قوله ﴿ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾ وهما طريقان : **أحدهما:** أن يجاور المناسب هكذا ، **والآخر:** أن يتقدم ما يقابل الأول ويؤخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴾{ سورة فاطر: ١٩ – ٢١} وقد يتأخر المتماثلان كقوله تعالى :﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ

وَٱلسَّمِيعُ ﴾{ سورة هود: ٢٤} ، وكل ذلك تفنن في البلاغة وأساليب الكلام.ولما كان قد تقدم:﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ { سورة غافر: ٥٧ } ، فكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوي بصفة الذم ، فبدأ بالأعمى))[٤٦]. فتجد تبياناً نوعياً وكمياً في الآيتين ففي الأولى قال﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وفي الثانية قال﴿ مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بزيادة (تاء) ، وزاد وفصل في آية غافر﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ ﴾{ سورة غافر: ٥٨}. مما يشير إلى تفاصيلٍ أكثر والجواب يحتاج إلى تبيان المقصود بالمسيء وتوضيح المقصد ، لأنه ليس هناك تحديد لنوع الإساءة ، لذا وردت﴿ مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾،أما قوله ﴿ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ ﴾ ففي ذلك تفضيل المؤمنين على الكافرين حيث أن الزيادة (لا) في (المسيء) للتأكيد .ونظائر ذلك كثيرة منها قوله تعالى:﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ { سورة الأنعام: ٥٠}. فهنا إنكار وإبطال للمساواة ، بدليل قوله ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأنهم يدركون تماماً أنه لا يمكن المساواة بين الضلالة والهدى ، كما لا يستوي الأعمى والبصير إلا أنهم يسمعون ولا يتفكرون ، لذلك بدئ السياق بـــ (قل) وهي للتبليغ ، أي خاطبهم يا محمد لم أصروا أن يبقوا في ضلالهم ، فعمد التعبير القرآني إلى هذه الموازنة أو المقابسة وقال في موضع آخر ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ ﴾{ سورة الرعد: ١٦}. ثم نفى المساواة تماماً بقوله:﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾{سورة فاطر:١٩-٢٠} فترى تكرار (لا) النافية قبل كل لفظ مضاد وفي ذلك تأكيد في نفي المساواة بين هذه الأطراف .وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ { سورة الجمعة: ٦} ، فقد سيقت هذه الآية الكريمة لإنكار مزاعم اليهود ، بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وتكذيب دعواهم بأن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة ، إذ قال تعالى على لسانهم ﴿ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا ﴾ {سورة البقرة: ١١١ }، لذلك صدَّر السياق بالفعل (قل) لأن الخطاب موجه للنبي محمد ﷺ ، بأن يخاطب اليهود كي يبين كذب ما ذهبوا إليه ﴿ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ ، فجاءت صيغة ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ لاختبارهم ، لأن الرسول ﷺ ، يعلم تماماً أنهم غيرُ صادقين ، فاقترنت اللفظة بـــ (الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب ، أي برهنوا على صدقكم بأن تتمنوا الموت ، وقوله ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ تشكيك في صدق دعواهم لأنهم لو كانوا صادقين لتمنوا الموت كي يخلصوا من دار البلاء والفتن وينتقلوا إلى دار السعادة والكرامة ، وأكد الله ذلك بقولهُ :﴿ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ { سورة الجمعة : ٧}. وفي الحديث ، أن النبي ﷺ قال لما نزلت هذهِ الآية:((والذي نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهوي إلا مات))[٤٦] ، وقال الآلوسي : ((فلم يتمنه أحد منهم وما ذلك إلا لأنهم كانوا موقنين بصدقهِ عليه الصلاة والسلام فعلموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد،وهذه إحدى المعجزات))[٤٨].وجاء في سورة البقرة نفي هذا التمني ب (لن) وهو من باب التفنن على القول المشهور ، إذ قال تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ {سورة البقرة: ٩٤}. لأن الخطاب في سورة البقرة محدد بزمن معين وهو الآخرة ، وهو أمر مستقبلي لذلك قال : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ { سورة آل عمران: ١٦٨}. إذ أن سياق الآية يشير إلى توبيخ المنافقين وإبطال دعواهم ، لأنهم زعموا أن المسلمين لو أطاعوهم ولم يخرجوا للقتال لما ماتوا ، فنزل الخطاب إلى النبي محمد ﷺ بصيغة الأمر (قل) ، وذلك لإخبارهم إنْ كان عدم الخروج إلى القتال ينجي من الموت فادفعوا عن أنفسكم الموت ، وأنَّ الموت آتٍ إليكم لا محالة ولو كنتم في بروج مشيدة فجاء ختام الآية : ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ بمثابة اختبار لصدق دعواهم . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ { سورة آل عمران: ١٨٣}. فترى قولهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ ﴾ وقولهم : ﴿ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ ﴾ قد أحال المنافقون أمر قتلهم الأنبياء وعدم الإيمان بما جاءوا به إلى الله ، وهذا باطل منكر ، لذلك خاطب الله نبيه ب (قل) وبإثباتات مسبقة ﴿ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ ﴾ فلم تؤمنوا بهم ، فأراد الرسول ﷺ أن يبين كذبهم وأن ينكر مزاعمهم ، وقد أفادت (قد) التي سبقت الفعل الماضي ((التحقيق)) لأنهم سبق وأن جاءهم الأنبياء فلم يصدقوا بهم فما قالوه مفترى على الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾{سورة الأعراف: ١٩٤}. والملاحظ في هذه الآية الكريمة إنكار لعبادتهم الأصنام وإبطال ما يفعلونهُ تجاه أشياء صنعوها بأيديهم لا تضر ولا تنفع إذ أن الإنسان صانعها هو أفضل منها ، لأن الصانع أشرف من المصنوع ، لذا قال : ﴿ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ فقد أراد أن يختبر دعوتهم وعبادتهم فقال : ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ ﴾ ، فجاءت اللام للسبب ، لأن الدعوة ينبغي أن تكون لسبب ما ، إما لشفاء أو تفريج همّ أو جلب رزق ، وكذلك اقترن الفعلان (بالفاء) لترتيب وتعقيب الدعوة ، فالاستجابة بغية لفت نظرهم أن ما يعبدونه لا قيمة له ، وبما أن الإنسان من صنع الله أنعم عليه بنعم عدة ينبغي أن يتوجه بعبادته إلى خالقه،وتأكيداً على تسفيه عقولهم قال تعالى لهم :﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾{سورة الأعراف: ١٩٥} ، فذكر السيوطي أن (الهمزة) هنا للإنكار ، فهي بمعنى النفي[٤٩]. فأراد أن يقول لهم أنها لا تملك شيئاً مما ذكر وفاقد الشيء لا يعطيه ، وكل ذلك موجود في الإنسان صانع الصنم ، فكيف يليق بالأكمل الاشرف أن ينشغل بالأخس والأدنى .وقوله تعالى : ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ {سورة الدخان: ٣٥}، ففي سياق هذه الآية إنكار للبعث والنشور ، فما إن متنا فلا حياة بعد ذلك ، ودليل ذلك قولهم: ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ لذلك حاولوا أن يضعوا أموراً تعجيزية ، ظناً منهم أنهم يعجزون الله ، وقد سيقت البراهين والمعجزات على قدرته بقولهم :﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ { سورة الدخان: ٣٦}، قال الإمام الرازي : ((إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا : إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فاجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بأن تسألوا ربكم ذلك ، حتى يصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في النبوة والبعث في القيامة))[٥٠] وتأكيداً على إصرارهم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾{سورة الجاثية: ٢٥}. إذ جعل الباري عز وجل قولهم الباطل (حجة) استخفافاً بعقولهم على سبيل الإنكار ، قال أبو حيان : ((سميت حجة على سبيل التهكم ، أي : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ، والمراد نفي أن يكون لهم حجة البتة، فهي ليست حجة حقيقية ، أي حجتهم عندهم))[٥١] .

القسم الثالث : الدلالة التقريرية :

حيث يأتي الإنكار في بعض الأحيان لتقرير أمر ما والتحقيق فيه بغية إثباتهِ ، لأن نفي النفي إثبات ، كما قال القزويني[٥٢] : ولكي تكون الصورة واضحة نتأمل بعض آي الذكر الحكيم ، فمن ذلك قوله تعالى :﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾{ سورة محمد: ١٥} فمن يتأمل السياق القرآني ، يجدهُ يقوم على تقرير مسألة المشابهة بين خَلَد في الجنة ومن زحزح عنها وادخل النار ، إذ أنّ أصل القول : ((أمثل الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار؟)) فترى أن التقرير يحمل المخاطب على القول: لا ليس كمثلها ، وأقر بالاعتراف بأن النار لا يمكن أن تكون شبيهة بالجنة ، يقول الزمخشري : ((فإن قلت ما معنى قولهُ تعالى: ((مثل الجنة التي وُعِد المتقون فيها أنهار، كمن هو خالد في النار ؟ قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ودخولهِ في حيزهِ وانخراطهِ في سلكهِ وهو قولهِ تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾{ سورة محمد : ١٤ } فكأنهُ قيل: أَمَثَلُ الجنة كمن هو خالدٌ في النار ؟ أي كمثل جزاء من هو خالد في النار . فإن قلت : فلم عُرِ من حرف الإنكار وما فائدة التعرية ؟ قلت : نعريتهُ من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواهُ ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم))[٥٣] .

وقولهُ تعالى:﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾{ سورة الزمر : ٣٦ } فجاءت الهمزة في ﴿ أَلَيۡسَ ﴾ للتقرير، أي للتقرير بما دخلهُ النفي. ((فالهمزة أذا دخلت على النفي كانت للتوبيخ أو التقرير))[٥٤]، فالله سبحانهُ كاف عبده، لذا جاء أسلوب التقرير ليقرر هذهِ الحقيقة وكان بالإمكان القول ((أن الله كاف عبده)) إلا أن المشركين تساءلوا بعد أن إصر النبي محمد ﷺ على دعوتهِ وتسفيه عقولهم بعبادة الأصنام والإشراك بالله ، لذا عمد التعبير القرآني أسلوب الاستفهام التقريري ، لأن المشركين . قد أنكروا بأن الله قادر على كف محمد ﷺ عما هو ماضٍ فيه ، كذلك لتوضيح الأمر للمشركين وتسلية للنبي عندما قالت لهُ قريش[٥٥] : ((أما تخاف أنْ تُخبِلَك آلهتنا لعيبك إياها فانزل الله :﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾ أي هو كاف عبده.)) فترى قولهُ :﴿ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾ولم

يقل :(بكاف محمداً) أو(رسوله) وذلك لإنكار يفيد الإطلاق بمعنى أن الله كاف محمداً وجميع عبادهِ ، وفي ذلك احتراس من أن الكف مقصور على النبي فحسب لأن الخلق كلهم عباد الله .وقولهُ :﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ { سورة المائدة : ١١٦ } فهنا استفهام على سبيل الإنكار والتقرير ، إنكار حقيقة المزاعم التي بثت من أن المسيح وأمه قد اتخذا إلهين من دون الله ، وتقرير ذلك من خلال الخطاب الموجه إلى عيسى عليه السلام بصيغة الاستجواب ﴿ ءَأَنتَ ﴾ مع علمهِ جل جلاله ببطلان تلك المزاعم . ذكر القرطبي : ((إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكارهُ بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع))[٥٦] ، بدليل أن المسيح أكد ذلك بقولهُ : ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ فقول :﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنويها لله من أن يشرك به ، وعضد ذلك بقولهُ : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ زيادة في التأكيد ، وبطلان دعوى من اتهم عيسى وأمهُ((عليهما السلام)) . والملاحظ في حكم الإشراك بالله يقدم الظرف ﴿ مِن دُونِ ﴾على الله بدليل أنهُ في المائدة لم يقل (مع الله) وكذلك في جميع آياتهِ ، من ذلك قولهُ ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾{ سورة الأنعام: ٧١ } وقولهِ : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾{ سورة الأنعام : ٥٦ } ولعل السبب في ذلك والله أعلم . أن الخالق هو أعلى مرتبة وأشرف مكانة من المخلوق ، لذا لا يمكن أنْ يُقرن المصنوع بالصانع ، وكذلك لا يمكن أن يوضع العبد بالمقياس مع الله ، فهو دون في الرتبة والمكانة ، فالله لا يغفر أن يشرك بهِ ويغفر مادون ذلك . وقولهُ تعالى:﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ { سورة الزخرف : ٣٢ – ٣٣ }. في هذا السياق إنكار على وجه التقرير ، لأنهم أقروا بأن النبوة لا تصلح إلا لذي مالٍ أو جاه. بدليل بقولهم ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. فوضعوا مقاييس ومعايير لمن تؤول لهُ النبوة. فحددوا الرجل والمكان، لأن النبي ﷺ في نظرهم فقير ويتيم ، لذلك جاء التعبير :﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ فلم يأخذوا بالحسبان ، الصفات الأخرى ، من صدقٍ ، وأمانة ، وسمو نفسي . يقول القزويني : ((أي ليسوا هم المتخيرين للنبوة من يصلح لها ، المتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرتهِ وبالغ حكمتهِ))[٥٧] .وقولهُ تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾{ سورة يونس : ٩٩}. فهنا إنكار لمن يدعي هداية الناس أو ضلالهم ، إذ جاء السياق بصيغة التقرير من خلال خطاب النبي ﷺ ، لذا بدئ السياق بالضمير المقرون بالهمزة للاستفهام والتقرير ، بغية إثبات حقيقة فحواها أنهُ ليس بمقدور أحد ، هداية الناس بالإكراه ، وإنما يقدر على ذلك كلهُ الله ، وأكد ذلك بقولهِ :﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾{ سورة يونس : ١٠٠} ، فجاءت صيغة الاستفهام لتقرر حقيقة الإيمان والترويح عن رسول الله ﷺ . بسبب حرصهِ الشديد على دخول المشركين كافة تحت راية الإسلام ، قال ابن عباس[٥٨] : ((كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فاخبرهُ تعالى أنهُ لا يؤمن إلا من سبقت لهُ السعادة في الذكر الأول ، و لا يضل إلا من سبقت لهُ الشقاوة في الذكر الأول لذلك قال : ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ ﴾ على إضمار المصدر المؤول ، لأن أمر ذلك مرهون بإرادته جل في علاه)) .ونظير ذلك قولهُ تعالى :﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ ﴾{ سورة الزخرف: ٤٠} فهنا لم يكن المقصود بالصّم ، أو العُمّي الجوارح عينها ، إنما شبه الباري عز وجل الضال الذي لم يهتد إلى نور الله بالعُمي ، والذي لم يسمع لآياتهِ ويحتكم إليها بالصّم ، فهنا الخطاب على سبيل تقرير حقيقة لا يمكن بمستطاع مخلوق أن ينهض بها ، فجاء الاستفهام بغية تقرير حقيقة هداية المشركين ، من أنها مرهونة بالأرادة الإلهية ، وهي دعوة أيضاً للترويح عن سيدنا محمد ﷺ ، بعدم الضجر من ذلك ، لأن الرسول ﷺ كما أسلفنا كان حرصاً على هداية المشركين إلا أنهم يزدادون تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً ، يقول الآلوسي : ((ومدار الإنكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط الذي لا يخفى لا توهم القصور منهُ ﷺ ففيه رمز إلى أنهُ لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحدهُ بالقسرو الإلجاء))[٥٩].

وقولهُ تعالى : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ { سورة مريم : ٤٦}. فترى من خلال هذا الاستفهام أن القوم أرادوا أن يقرر حقيقة رغبة إبراهيم عن آلهتهم وهو بالنسبة لهم ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم ((فأي تعجب في الأعراض عن حجة لا فائدة فيها ، وإنما التعجب كلهُ من الإقدام على عبادتها ، فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام

كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها ، فكان أباهُ قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على الدليل وشبهه ، ولاشك أن هذا التعجب جديد بأن يتعجب منهُ)) [٦٠] وهذا بخلاف ما قالوا : (أأنت راغب عن آلهتنا) فالتقديم والتأخر بحسب الأهمية ، لأن الأهم عندهم هو إغراض إبراهيم وليس المهم الراغب،لأن الإعراض شكل لهم صدمة وشيئاً لا يعقل عندهم .

الخاتمة

في نهاية المطاف وبعد العرض الموجز الذي تطرقنا فيه إلى قراءة بعض الآيات القرآنية الحاملة في مضمونها دلالة الإنكار ، لا يسعنا إلا ان نعرض اهم النتائج التي توصلنا إليها :

١- كل كلمة او لفظة اختارها القرآن الكريم إلا وهناك سرٌ يقف وراء هذا الإختيار سواء عرفناه فأخبرنا به ، او غَمُض علينا او قَصُر إدراكنا عنه ، فأخذنا الإجتهاد في تحصيله وحاولنا الكشف عن مخبوئه وخفيِّه .

٢- لا يكون للكلمة وحدها معنىً محدد مالم تستعمل في اللغة داخل سياق يوحي بدلالتها .

٣- الدلالة التوبيخية نوع من انواع دلالة الإنكار يحث تكون بمعنى ما كان ينبغي ان يكون .

٤- الدلالة التكذيبية اللون الثاني من الوان دلالة الإنكار وتأتي بمعنى لم يكنْ .

٥- الدلالة التقريرية اللون الثالث من الوان دلالة الإنكار أي إن الإنكار قد يأتي لتقرير امر ما والتحقق فيه بغية إثباته .

الهوامش

١- Semantic fields and Lexical structure A. Lehrer P 147.

٢- ينظر علم الدلالة ، أحمد مختار عمر ٦٨ – ٦٩ – ٧٠ .

٣- الايضاح في العلوم البلاغية / للقزويني / ١١٣ .

٤- روح المعاني ، لأبي الثناء الآلوسي / المجلد الثاني / ١٤٥ .

٥- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، ج٣ / ٣٠ .

٦- التحرير والتنوير المعروف بتفسير (ابن عاشور) / ج٢ / ٢٧٦ .

٧- تفسير الفخر الرازي / مج ٣ / ج٨ / ١٤٧ – ١٤٨ .

٨- ينظر الإيضاح في علوم البلاغة / ٢٠٩ ، البلاغة فنونها وأفنانها ، د. فضل حسن عباس / ٢٢٢ .

٩- ينظر : تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير / ج٢ / ١٤٨ .

١٠- الكشاف ، للزمخشري / ج١ / ٥٦٨ .

١١- ينظر : همع الهوامع في شرح جامع الجوامع ، لأبي بكر السيوطي، مج٢ / ٤٥٢ ، وينظر : روح المعاني ج ٤ / ٢٣٣ .

١٢- البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي ، ج٤ / ٣٠٣ .

١٣- علم المعاني ، د. بسيوني عبد الفتاح / ٣٢٤ .

١٤- الجامع لأحكام القرآن ، تفسير القرطبي ، ج٦ / ٢١٠ .

١٥- الجامع لأحكام القرآن ، تفسير القرطبي ، ج١٠ / ٢٦٤ .

١٦- تفسير الفخر الرازي ، مج ٧ / ج٢١ / ١٢٦ .

١٧- روح المعاني ، لأبي الثناء الآلوسي ، مج٨ / ٢٦٤ .

١٨- روح المعاني ، مج ٨ / ٢٦٥ .

١٩- الجنى الداني في حروف المعاني / ١٤٤ ، ١٤٦ .

٢٠- روح المعاني ، مج ١ / ١٤٧ .

٢١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، مج ١ / ٢٤٨.

٢٢- ينظر الجنى الداني في حروف المعاني / ٤٠٦ .

٢٣- ينظر المصدر السابق / ١٢١ – ١٢٢ .

٢٤- معاني القرآن ، للفراء ، مج ١ / ٢٨ .
٢٥- الكشاف ، للزمخشري ، ج١ / ٢٦٩ ، ٤٥٠ .
٢٦- البحر المحيط ، لأبي حيان ، ج٧ / ١٧٧.
٢٧- روح المعاني ، الآلوسي ، مج ٥ / ١٦٥ .
٢٨- ينظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ج٩ / ٢٠ .
٢٩- ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني / ٢٧٣ ، وينظر لسان العرب لابن منظور ، ج ١٣ / ٤٩٩ مادة (سفه) .
٣٠- البحر المحيط ، لأبي حيان ، ج٤ / ٦٨٧.
٣١- المصدر السابق ، ج ٨ /٤١ .
٣٢- تفسير الفخر الرازي ، مج٨ / ج٢٣ / ٢٠٠ .
٣٣- ينظر : البحر المحيط ، لأبي حيان ، ج٦ / ٣١٩ .
٣٤- تفسير الفخر الرازي ، مج ٩ / ٢٦ / ١٨٣ .
٣٥- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، مج٢ / ٤٨٣ .
٣٦- ينظر : علم المعاني ، د. بسيوني عبد الفتاح / ٤٢٠.
٣٧- مفتاح العلوم ، للسكاكي / ٣٢٤ .
٣٨- علم المعاني ، د. بسيوني عبد الفتاح / ٣٢٤ .
٣٩- مفتاح العلوم للسكاكي / ٤٢٦ ، الإيضاح ، للقزويني / ١١٣ ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، مج ٢ / ٤٨٣
٤٠- ينظر : علم المعاني ، د. بسيوني عبد الفتاح / ٤٢٠ .
٤١- معاني القرآن ، للفراء ، مج ٢/ ٣٦ .
٤٢- علم المعاني / ٤٢٠ .
٤٣- تفسير الفخر الرازي ، مج ٩ / ج٢٥ / ١٥٤ – ١٥٥ .
٤٤- معاني القرآن ، للفراء ، مج٢ / ١٤٩ – ١٥٠ .
٤٥- روح المعاني ، للآلوسي ، مج ١١ / ٤٢٦ .
٤٦- البحر المحيط ، لأبي حيان ، ج٩ / ٢٦٨ .
٤٧- الجامع لأحكام القرآن ، تفسير القرطبي ، ج١٨ / ٥٨ .
٤٨- روح المعاني ، للآلوسي ، ١٣ / ٦٩٤ .
٤٩- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، مج٣ / ١٦٩ .
٥٠- تفسير الفخر الرازي ، مج ٩ / ج٢٧ / ٢٢٥.
٥١- البحر المحيط ، لأبي حيان ، ج٩ / ٤٢٣ .
٥٢- ينظر الإيضاح للقزويني / ٢٣٤ .
٥٣- الكشاف ، للزمخشري ، ج٣ / ٥٣٣ .
٥٤- شرح الكفاية ابن الحاجب ، للرضي ، مج ٤ / ٤١٥ .
٥٥- معاني القرآن ، للفراء ، مج ٢ / ٢٩٩ .
٥٦- الجامع لأحكام القرآن ، تفسير القرطبي ، ج٦ / ٣٤٦ .
٥٧- الإيضاح ، للقزويني ، ١١٣ .
٥٨- الجامع لأحكام القرآن ، تفسير القرطبي ، ج٨ / ٣٤٢ .
٥٩- روح المعاني ، للآلوسي ، مج ١٢ / ٦٦٠ .
٦٠- تفسير الفخر الرازي ، مج ٧ / ج١٢ / ٢١٠ .